الحجاج التقويمي في خطاب
(اسمية بعض حروف الجرِّ) للشاطبي: أدواته، وسماته

د٠ فوزية بنت بداح بن مخلد العتيبي (*)

المقدمة :

يعد الحجاج التقويمي من المراتب العليا لتوظيف الحجاج في الخطاب النحوي؛ فالنحوي يلجأ إليه لمقاصد عدة، وقد يكون أشبه بمحاولة استباقية لسد جميع منافذ الاعتراض على ما ورد في خطابه، واختبار صدق حججه.

بمعنى أنه مجاراة لطريقة تفكير افتراضية يحاول فيها الوصول إلى ما يمكن الاستناد إليه من حجج وردها بما يتناسب مع مقصده الأساس.

وفي هذه العملية الافتراضية يمكن رصد ملامح التفكير النحوي بالإجابة عن التساؤل كيف استطاع النحوي توظيف حجاجه التقويمي في خطابه العام؟ ما الأدوات اللغوية التي استعملها في حجاجه؟ وبمَ اتسم؟ وما أثر توظيفه في الدرس النحوي؟

ومن هنا انبثقت فكرة هذه الدراسة، التي اتخذت من خطاب (اسمية بعض حروف الجرِّ) للشاطبي ميدانًا لها.

وتكمن أهميتها في عنايتها بتحليل خطابه وإبراز الأدوات اللغوية التي استند إليها في توظيف الحجاج التقويمي وإبراز سماته، لتصل منها إلى ملامح تفكيره النحوي، والأسس التي يستند إليها فيه.

وهي تهدف إلى إبراز آلية توظيف الحجاج التقويمي، والوقوف عند أدواته اللغوية؛ لاستنباط سمات الحجاج من خلالها، وبيان الأثر الذي تركه في الخطاب النحوي.

(*) أستاذ اللغويات المشارك بكلية الآداب– جامعة الملك عبد العزيز– جدة.

ولم تكن هذه الدراسة بدعًا في حقلها، بل هي مسبوقة بدراسات عنيت بالحجاج التقويمي، سواء أكانت معنية بتنظيره في أثناء تنظير نظرية الحجاج، كدراسة طه عبدالرحمن (اللسان والميزان (التكوثر العقلي) (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م)، أم كانت مقتصرة على سمة فيه، كدراسة أيمن فتحي عبدالسلام زين(المساءلة بين الحجاج التقويمي والمغالطة دراسة في التفكير النحوي) (جامعة القاهرة: مجلة كلية الآداب، يناير ٢٠٢١م، مجلد ٨١)، التي كان من نتائجها خلوصها إلى أن الحجاج النحوي يقوم " في بنيته الفكرية على المساءلة التي تخرج أحيانا عن سياقها وتقرب من المغالطات.

لكن ما يميزها عن سابقتيها هو عنايتها التطبيقية بتحليل خطاب الشاطبي ميدان الدراسة؛ لإبراز آلية توظيف الحجاج التقويمي فيه، وللتوصل أثره في الدرس النحوي.

ولعل أمثال هذه الخطابات قليلة الارتياد من قبل الباحثين؛ إذ جل تحليلاتهم تكون في النصوص الشعرية أو النثرية، في حين أن خطابات النحاة في مصنفاتهم جديرة بالتحليل، وتعد بيئة ثرية يمكن الإفادة منها في استنباط ملامح تفكيرهم النحوي، كما هو الحال مع خطاب الشاطبي في مسألة الدراسة؛ إذ استطاع أن يختلق موقفًا حجاجيًّا مع محاجِج وهمي وانساق معه في سجال يسعى لتحقيق مقصده.

وقامت الدراسة على محورين سبقهما توطئة عن الحجاج التقويمي: مفهومه، وسماته، اعتنى المحور الأول بدراسة الأدوات اللغوية في الحجاج التقويمي في خطاب (اسمية بعض حروف الجرِّ) دراسة تحليلية، كما اعتنى المحور الثاني باستنباط سمات الحجاج التقويمي في خطاب (اسمية بعض حروف الجرِّ) وأثرها في الدرس النحوي.

والله نسأل التوفيق والسداد.

توطئة: الحجاج التقويمي وعلاقته بالخطاب.

تدور دلالة (الحِجاج) في المعاجم حول ما يدفع به الخصم[١]، فيكون هو القصد سواء أكان دليلاً أم أسلوب عرض، وتدور دلالة (التقويم) حول التعديل[٢]، وإخراج الشيء إخراجا مقبولاً.

ولعل محاولة التوفيق بين هاتين الدلالتين لشقي المصطلح تكمن في كون ما يدفع به الخصم تعديلاً لوجهة نظره، وهذا تحقيق لمقصد الإقناع الذي هو هدف الحجاج.

ويعد الحجاج جزءًا مهما من الخطاب؛ إذ يسهم في تحقيق المقاصد؛ فهو "إنجاز تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب"[٣]، من خلال توظيف الحجج والأدلة التي تسير للوصول لنتيجة ما، وتختلف آلياته من خطاب لآخر، وتكمن براعة منشئه في سبكه بطريقة تتلاءم مع مقصده وأحوال متلقيه؛ فهو يسعى بدءًا لوضع خطة لمحتواه، ويقدمه بأسلوب مباشر؛ ليتمكن مستقبله من فهم مكنوناته.[٤]

والحجاج التقويمي يعد أعلى مراتب الحجاج؛ إذ يسعى فيه منشئه في سبيل إثبات حجته إلى أن يجعل من ذاته ذاتًا أخرى محاورة معترضة وسبَّاقة إلى طرح التساؤلات والاعتراضات؛ لمحاولة استشراف تعامل المتلقي معها، وإغلاق كل الطرق التي قد تؤدي لنقض حجج خطابه، فهو يدعي ويعترض لتحقيق النتيجة المرادة. [٥]

وذهب أحد الباحثين المحدثين إلى أن الحجة المقوِّمة التي يستند إليها الحجاج التقويمي دليل يقوم على التفاعل التخاطبي بين منشئ الخطاب ومستقبله؛ فهي تتسم بالتفاعل المزدوج؛ إذ يقوم منشئ الخطاب بدورين في ذات واحدة، من خلالهما تتم عملية الحجاج التقويمي في مبادرة ادعاء الحجج والاعتراض عليها. وتتسم بالممارسة الحية بكافة أشكالها. [٦]

بعبارة أخرى، يمكن القول بأنه أشبه ما يكون بحجاج ظني متوقع لما سيكون، يحاول فيه مؤسس الخطاب تدارك الثغرات التي قد تبدو للمتلقي، ومحاولة سدّها بما يتوفر له من حجج.

وكأنه بذا يقوم بمهمتين عقليتين في آن واحد؛ مهمة تأسيس الخطاب للمقصد الذي يريده، ومهمة تقويمه بتوقُّع ما سيكون؛ لدفع وهم أو افتراض قد يظهر للمتلقي، ويستطيع من خلالها نقض الخطاب أو توهينه.

وعلى ذا، فإيراده الحجج في هذا النوع من الحجاج يتطلب من منشئه أن يكون ذا سعة في علمه بالمقدمات الحجاجية وكيفية توظيفها لتحقيق هدفه.(٧)

أي، يستند إلى توافر رصيد معلوماتي عن تفاصيل السياق وإلى إجراء حوار وهمي يمكن التنقل فيه بين الحجج رغبة في الوصول إلى المقصد المراد.

وعلى ذا، فمما يميز هذا النوع من الحجاج كون مرسله سيد الموقف بتفاصيله كافة، فلا يهتمُّ بما قد يلقيه عليه خصمه من حجج، يهدم بها حجاجه، ولا بمستوى ثقافته؛ إذ هو يجرى أشبه بمناظرة ذاتية، فيكون فيها طرفيها، ويجري حوارًا ضمنيًّا يعرض فيه الحجج التي يريدها وكأنه يحاول قراءة أفكار خصمه، ويناقشها بأسلوب رصين بعيد عن أساليب التنفير. (٨)

المحور الأول

الأدوات اللغوية في الحجاج التقويمي في خطاب (اسمية بعض حروف الجرِّ): دراسة تحليلية

المتعارف عليه في الدرس النحوي أن حروف الجر لا تدلُّ على معنى في نفسها، والأصل فيها أن تكون حروفًا، لكن بعضها خرج عن هذا الأصل، كالكاف وعن والباء التي بمعنى(مع) وتعدَّدت حولها آراء النحاة، فمنهم من يقول بحرفيتها، ومنهم من يقول باسميتها ، وقد تناقلتها المصنفات النحوية[٩] على اختلاف مناهجها، ومن بينها مقاصد الشاطبي؛ إذ تعرَّض لها[١٠] في سياق خطابه، الذي أورد فيه حجاجًا تقويميًّا لنفي دليل اسميتها؛ إذ يلحظ تأسيس حجاجه على فرضية يَفترض التسليم بها– والقائمة على أن حرف الجرِّ إذا أفاد معنى الاسم صار اسما – ثم نقضها بما قد يحاجج به محاججه.

وقد استخدم فيه عددًا من الأدوات اللغوية التي يمكن من خلال الوقوف عند دلالاتها المباشرة أو غير المباشرة، وتعيين المعاني وظلالها، تصريحًا أو تلمحيًّا[١١] ، ويمكن بيانها حسب ورودها فيه على النحو الآتي:

أولاً: أدوات مرحلة التقديم.

ثانيا: أدوات مرحلة العرض والرد.

ثالثاً: أدوات مرحلة التمحيص والتقويم.

أولاً: أدوات مرحلة التقديم.

استفتح الشاطبي حجاجه التقويمي بأدوات وروابط حجاجية هي الآتي:

- (إن) وتدلُّ على افتراض مسند إلى فعل مبني للمجهول(قيل)، ويحمل منه ملمحان:

الملمح الأول: تكامل دلالة الافتراض ب(إن) مع دلالة الفعل الماضي (قيل) أكسبت مقدمة الحجاج بداية قوية، فهي وإن كانت افتراضًا إلا أنها مشعرة بثبوتها،

وهذا مما يجذب المتلقي أو الخصم لتأملها؛ فهي ممهدة مطمئنة، ويمكن عدُّها من بواكير ملامح مراعاة حال المتلقي.

الملمح الثاني: مرتبط بأهمية القول لا قائله، وهو المستفاد من بناء الفعل للمجهول.

- (بل) حرف إضراب استهل الشاطبي به حجاجه، ويلمح منه الآتي:

- تأثير دلالة الكلمة على سياق الحجاج؛ فتوظيف (بل) أكسب الحجاج بعدًا تفاعليًّا؛ إذ سهَّلت الانتقال من الحجة السابقة، والإضراب عنها.

- وضع تصوُّر لسمة المحاجَج (الوهمي): فهو إما كونه مجادلاً، أو متعطشًا للمزيد، وقد يكون متسمًا بالسمتين، وهذا مما يكسب الخطاب قيمة عليا، تبرز قدرة مؤسس الخطاب على الدفاع عن فكرة فرضيته، وإبراز قدراته في محاججة الآخر؛ إذ لم يفترض أن يكون المحاجَج أقل منه، بل هو ندٌّ له، وكأنه بهذا يحفز المتلقي لمتابعة سياق حجاجه، ويضع نفسه في المقابل في تحدٍّ مع ذاته.

- ردة فعل المحاجِج توقُّع مسبق برفض المحاجَج لفرضيته، وهي ردة فعل طبعية، ومهمة لاختبار صحة الفرضية وثباتها.

- (الظاهر) تصريح بالأصل المعتمد عليه في نقض حجة الفرضية التي استند فيها مؤسس الخطاب إلى ما يُفهم منه كلام النحوي في المسألة.

وهنا يظهر التضاد بين الأصلين المستند إليهما في القول بالفرضية ونقضها، وتبرز البراعة في صوغ الحجة، فلم يستند إلى قول واه يسهل نقضه، بل إلى الحجة المضادة لحججه، وكلا القولين يستندان إلى حجج قوية تدعم الرأي الذي تعضده، وتنقض ضده.

يلمح من هذه الأداة أمران:

الأمر الأول: سعة علم الشاطبي وبراعته في توظيف الحجج النحوية في سياق حجاجي.

الأمر الثاني: عمق العلاقة الدلالية بين هذه الأداة اللغوية وما سبقها؛ إذ النقض لم يكن مختلقًا بل كان مستندًا إلى واقع ظاهر، وفي المزاوجة بينهما إكساب للحجاج التقويمي قوة منذ بدايته. فهل سيكون نقضه بعد ذلك بالأمر اليسير؟! وفي هذا يثبت التَّحدي الذي وضع الشاطبي نفسه فيه.

- (البقاء على الحرفية) التصريح بنقض الفرضية بالالتزام بالأصل، الذي يستفاد من دلالة كلمة (البقاء)؛ فهي تدل على الدوام[١٢]، المرتبط بالاطراد، وهو سمة الأصول.

ويلمح من هذه الأداة الاستناد إلى أصل استصحاب الحال والأصل، حجة أولية في بدء الحجاج التقويمي، وفي ذلك إكساب للسياق بعدًا تقعيديًّا رصينًا، منبثقًا من أصول تفكير معتدٍّ بها في الفكر النحوي، وليست خطرات واهية.

- (كما يشير إليه كلامه) جملة اعتراضية، تعضد دلالة كلمة (الظاهر) السابقة، لفظيًّا وسياقيًّا.
- أداة الربط (العطف بالواو) جاءت لتربط المقدمة الحجاجية بصريح حكم نقض حجة الخصم، الذي تدرَّج من النفي إلى الإثبات؛ إذ بدأ بقول (لا يلزم) وأتبعه بقول (إنما يلزم) متنقلاً بين الهدم والبناء، بأسلوب يتناسب مع مقدمة الحجاج؛ إذ المحاجِج المجادل لا يتوقع منه قبول الرأي الوسط في هذا السياق.

فبدؤه بهدم حجة خصمه القائمة على افتراض القول باسمية حرف الجرِّ إن دلَّ على اسم، ثم بناؤه بحجته القائمة على أن القول بالاسمية يثبت بوجود سمات الأسماء.

ويلمح من قوله هذا سمة تقعيدية تتمثَّل في الإجراء المتخذ عند اجتماع قرينتين متضادتين كما هو الحال في هذه المسألة؛ فالمحاجِج مع القول بالأخذ بالقرائن اللفظية، مستندًا فيه إلى الآتي:[١٣]

١. القياس: كما في الواو التي بمعنى (مع)، واسم الفعل، والاسم المتضمن معنى الحرف.

٢. الاستقراء: فقد صرَّح بقول (لم يقل البصريون والكوفيون إن الواو التي بمعنى (مع) اسم).

ويلحظ على أدوات المقدمة الحجاجية جمعها بين تكامل اللاحق منها بالسابق، وتمهيد سياق الخطاب لبدء الحجاج، ويغلب عليها كونها روابط تفاعلية قصيرة.

ثانيًا: أدوات مرحلة العرض والرد:

تجسد هذا الأدوات مراحل التنقل بين الحجج، وجاءت على النحو الآتي:

- (فالجواب) ابتدأ الرد على حجة الخصم بهذه الكلمة وكأنه يفترض طرحه سؤالاً يحتاج إلى إجابة، وقد بدأه بالأدوات الآتية:

- التوكيد المفهوم من دلالة (أن) وهو ما يتسق مع السياق الذي افترض فيه ردَّ الخصم لحجته، والذي استدعى حجاجه.

- الانتقال من التعميم إلى التخصيص؛ سعيًا لإقناع الخصم والتخفيف من حدة ردة فعله وانفعاله لو بدأ الرد بإثبات كلامه بتضاد مع ما ذهب إليه في افتراضه.

يعضد ذلك استخدامه لكلمة (النحويين) دون إضافة أو وصف؛ فهو تعميم مشعر باعتدادهم بالقرائن المعنوية وكأنه أمر أشبه بالمسلم به.

وفي ذات الوقت يدعو للتساؤل: أهو تعميم لتسويغ قبول الرأي فحسب؟ أو المسألة فعليًّا خلت من الاختلاف؟ وهل المقصد بيان موقف النحاة منها أو هناك مقصد آخر؟

لعل القول بنفي وجود الخلاف فيها أمر يبعد عن واقع الدرس النحوي ومسائله القابلة لتقليب النظر فيها وكشف مكنوناتها الذي قد يتفاوت فيه النحاة لمسببات عدة، كالحضور الذهني، والمرحلة الزمنية لنشوء الدرس النحوي.

لكن ما يرتضيه العقل ويتناسب مع سياق الخطاب أن الشاطبي أراد من ذلك كسر حدة الخلاف وتمهيد عرضه لخصمه وإقناعه برأيه، بدلالة –ما قيل سابقًا– خلو الكلمة من الإضافة أو الوصف لنحاة اتجاه ما أو في مرحلة ما.

ويلمح من ذلك نكتة لطيفة– يمكن عدها من سمات آليات حجاجه– تتمثل في حرصه على التدرج في إقناع خصمه بأسلوب معتدل يبعد عن إثارة حفيظته، دون اللجوء إلى تمويه عرض المسألة النحوية.

ويمكن رصد مظاهر هذا التدرج في الآتي:

- عبارة (وابن مالك واحد منهم).
- دعمه هذا الرأي بما نصَّ عليه في أحد مصنفاته.
- الاستئناس بذكر أمثلة للاعتداد بمعنى الاسمية، كما في (سبحان) و(قد) و(كيف).
- الاستناد في مد حكم المرادف إلى مرادفه بالقاعدة الكلية (إذا ثبت لأحدهما حكم ثبت للآخر)[١٤] .

ثالثًا: أدوات مرحلة التمحيص والتقويم:

تأتي هذه الأدوات ختام أدوات حجاج الشاطبي في خطابه، وتميل إلى كونها تراكيب طويلة مقارنة بسابقاتها، ولعل هذا عائد لكونها محصلة الحجاج؛ إذ بدأها بقوله (وإذا كان كذلك فالسؤال وارد أولا) ، الذي ختم به سياق التدرج بتوضيح أن كل ما ذكر أعلاه من موقف النحاة من القرائن المعنوية يبقي الإلزام به موضع سؤال.

وهو بهذه الأدوات يؤسس مقدمات للانتقال إلى الهدف الأساس، وهو التمحيص والتقويم لنقض الحجة التي استند إليها الخصم وعرضها في بداية

حجاجه التقويمي؛ فبدأ بدحضها بأسلوب ضمني في بدايته، وكأنه مؤيد لما افترضه خصمه من إلزام اسمية الواو التي بمعنى (مع)، واسم الفعل، والاسم المتضمن معنى الحرف. وتتمثَّل أدواته اللغوية في هذه المرحلة في تراكيب هي كالآتي:

- (فنقول بموجبه لو لم يكن ثَمَّ معارض) تسليم صريح يفهم منه قبول حجة الخصم، مع استمرار الحفاظ على كسب ردة فعله، وهو في الوقت ذاته استدراج لتقبل القيد الذي ختم به التركيب، الذي –هو في الواقع– أصل النقض؛ إذ اشتراط عدم وجود معارض ينقض القول باسمية هذه الكلمات.
- (وقد ثبت المعارض) تأكيد للنقض ولنفي احتمال عدم وجود معارض، يعضد ذلك استعماله الفعل الماضي (ثبت) مسبوقًا بـ(قد) لتحقق وقوعه؛ ولإغلاق باب استئناف الاعتراض؛ إذ أتبعه بتفصيل وجه ثباته في المواطن المستند إليه مبتدئا باستقراء عقد من خلاله موازنة بين موقع الكلمة ونوعها؛ فما يقع في عجز الكلمة فهو اسم كتاء الرفع وياء النصب والجر، وما يقع في صدرها فهو حرف كباء الجر ولامه.

فربط بينهما ليصل إلى أن القول بموجب هذه الفرضية يوجب الحكم بما لا نظير له.

ثم انتقل لافتراض قبول حكم هذه الفرضية وأتبعه بقياس ثبوت وجود المعارض في أسماء الأفعال والشرط والاستفهام، وأعقبه بتصريح بموقف ابن مالك من الفرضية ذاتها.

هذا التدرج في آلية عرض الحجاج يحمل بعدًا مهمًّا، وهو مراعاة الحالة النفسية للمتلقي أو الخصم، للوصول به إلى مرحلة الإقناع التي هي من مقاصد الحجاج.

- (وهذا- وإن كان فيه نظر-) تسليم باعتراض قد يتبادر إلى ذهن المتلقي استدركه بتمام عبارته (فهو على الجملة صحيح) وكأنه يحاول قطع الطريق على فكره أن يسترسل ويمضي في تأمله.

هذه الحالة من الدوران بين الحجة ونقضها تجسد ملامح الحجاج التقويمي عنده، التي يمكن بيانها في الآتي:

- البراعة الحجاجية لديه في محاججة خصمه بأسلوب هادئ ومتزن.

- حسن السبك وتناسق نظم الحجج ونقضها أضاف للحجاج بعدًا نفسيًّا؛ فهو في حالة مد وجزر معه، جعله فيها يتأرجح ما بين التأييد لما قد يتبادر إلى خلده، وإقناعه بحجته، في سياق هادئ متسارع؛ لا يترك له فيه الفرصة للخروج عن فلكه.

لعل نكتة توظيف الحجاج التقويمي في المسألة تبرز من هذه النقطة؛ إذ بها استطاع الشاطبي فتح المجال في خطابه لمناقشة موقف النحويين من اجتماع القرائن النحوية وعلاقتها بإصدار الأحكام النحوية، بعيدًا عن أسلوب التلقين النظري؛ ففي توظيف الحجاج التقويمي في هذا السياق إثراء فكري، ودعوة للتأمل في الأحكام النحوية، وكيفية تعامل النحاة معها؛ فهم كما يعتدون بالقرينة اللفظية يعتدون بالقرينة المعنوية.

- (ولوجود المعارض) تفسير يعضد القول بأهلية وجود المعارض لإثبات حكم ما؛ إذ قاس وجود المعارض في المسألة على وجوده في أسماء الأفعال والشرط والاستفهام، ولذا حكم باسميتها.

وأتبعه بنص لابن مالك يبين موقفه الصريح ليدعو الفكر بذلك للتساؤل لمَ لم يعرض هذا النص حجة أولية في إثبات فرضيته وهو نص صريح مغنٍّ وكافٍ عن الحاجة لسوق بقية الحجج؟

إنعام النظر في هذه الحال يرجِّح القول بأن توظيفه الحجاج التقويمي في خطابه لم يكن عبثًا أو منفذًا يمكن من خلاله تدارك فوائت خطابه الأساس، بل

هو استحضار واعٍ لمنهج مصنفه العام وربطه بأحوال متلقيه؛ إذ لو كان يهدف من حجاجه التقويمي الانتصار على خصمه ومناظرته لاكتفى بنص ابن مالك حجة مفحمة تنهي الجدال لصالحه، لكن وعيه بأن مصنفه تعليمي، ومن يحاورهم على تفاوت أحوالهم –حضورًا أو غيابًا– متعطشون للعلم، وبحاجة لأدواته، دفعه للتدرج معهم في عرض حججه؛ ليوازن بين تحقيق مقصدهم وتحقيق مقاصده.

إذ لم يكن هذا النص ختام حجج فرضيته، ونهاية حجاجه، بل انطلق منه سائرًا على هدى (السبر والتقسيم) في نفي صحة الفرضية.

- (إذا بنينا على طريقة ابن مالك) مقدمة افتراضية زاوج فيها بين أساس الفرضية وطريقة ابن مالك وحجة ثبوت المعارض لنفي دعوى الاسمية في الباء وقياسها على الواو.

هذه الطريقة تفسح الباب للمتلقي لمحاولة إيجاد ثغرة يمكن من خلالها نقض الحجج السابقة أو بعضها، وهي أشبه بمراوغة نفسية تعطيه الأمان في تحقيق هذا المقصد، وهو ما جسده أسلوب عرضه لحرفية الباء.

وجاء أسلوب عرضه لاسمية (عن) مشابهًا له في ظاهره؛ إذ ابتدأ بعبارة (وأما (عن) فيلتزم أنها حينئذ اسمًا) وأتبعها بتفسير قارن فيه بأسلوب غير مباشر (اعتراض قد يطرأ للمتلقي) بين نفي القول باسمية الواو وصحة القول باسمية الكاف، مستندًا في الأخير إلى ترجيح ماله نظير على ما ليس له نظير.

ومحصلة هذا الاعتراض تفضي للقول بثبوت القول بحرفية الباء المصاحبة لـ(مع) كالواو؛ بتغليب الحكم اللفظي فيهما، واسمية (عن) التي بمعنى (بعد) قياسا على اسمية (قد) التي بمعنى (حسب) بتغليب الحكم المعنوي فيهما.

- (وهذا كله تكلف) ختم بنتيجة غير متوقعة أربكت المتلقي؛ إذ هدم فيها حجته بعبارة قد تكون أقسى عبارة في خطابه.

وتعد هذه الختمة نكتة لطيفة؛ إذ استطاع بها قطع الطريق أمام محاولة استئناف الحجاج، وهو ما يلمح من تقديم كلمة (كله) على الخبر (تكلف).

- (والصواب....) استحضار لدوره في الحجاج وسلطته؛ فهو معلم، ومصوب لأخطاء تلامذته، ومع ذا يلحظ استمراره في التودد لخصمه؛ إذ اختار التصويب على التخطئة، إذ الأخيرة قد تكون مقلقة نفسيا، ومنفِّرة.
- ألا يحكم على (عن) بالاسمية إلا مع دخول (من) لا دونها) تصريح بالمعيار المأخوذ به في القول باسمية بعض حروف الجر، أو بقائها على حرفيتها.

إنعام النظر في بداية هذه الأداة وما قبلها يلمح منه وجود تكامل بين دلالتهما وسياق الحجاج؛ فالصواب تحمل دلالة سلطة مهمة المعلم، التي تكتمل بأسلوب النفي (ألا يحكم) وهو ملمح لمهمة المعلم في تقويم ما تعلمه تلامذته وتصويب ما خرج منها عن مساره. وختم نهاية التركيب بتقرير الحكم، الذي يلمح من إعادته مرتين في بدء التركيب ونهايته تأكيد وتقرير.

- (فالأولى) ترجيح بأسلوب عالٍ من التأدب مع الخصم؛ إذ الأولوية هي سبب الترجيح.
- (في هذا الموضع أن يقال) قصر الاهتمام على الموضع والحكم لا على قائله؛ إذ بنى الفعل بعده للمجهول.
- (إنما تدعي الاسمية في الكلمة إذا وجدت فيها خواص/ الاسم كان معناها معنى الاسم أو معنى الحرف، وإذا لم يوجد فيها شيء من ذلك، فالمدعي فيها الحرفية كان معناها معنى الاسم أو معنى الحرف) تخصيص ضابط المفاضلة والترجيح وافتتاحه بأداة القصر (إنما) التي يلمح منها أمران:

الأمر الأول: توظيف الدلالة النحوية لحرف التوكيد (إنَّ) المتصل بـ(ما) الكافة عن العمل؛ لتيسير دخوله على الجملة الفعلية.

الأمر الثاني: اتساق دلالة أسلوب القصر مع الغاية من الحجاج؛ فالقصر تخصيص المعنى، والحجاج التقويمي قائم على هدف تبليغ المعنى المراد، وفي تأديته مؤكدًا تحقيق للهدف مع الحفاظ على الأصول النحوية المتعارف عليها.

وعلى ذا، فترجيح الشاطبي معيار القول باسمية بعض حروف الجرِّ يلمح منه ملمح فكري مرتبط ببعد تقعيدي؛ إذ إطلاق القول الأول يؤول إلى تمويه خصائص الكلمات والتباس بعضها ببعض، ففي ربطها بالخواص الأصلية حفظ لماهية التصنيفات التي ساروا عليها في الدرس النحوي.

وهو ما يلمح من دخول الجملة الفعلية على حرف التوكيد (إنَّ) المتصل بـ(ما) الكافة عن العمل المتصلة؛ إذ تحمل إشارة لكون المسألة عارضة؛ تتم بوجود قيدها، وتزول بزوالها، كما يعضد هذا دلالة كلمة(الادعاء).

ولعل في ذلك تجسيد للقاعدة الكلية (إذا شبهت العرب شيئا بشيء مكنت الشبه بينهما بإعطاء المشبه به شيئا من المشبه)؛ فمرادفة الحرف للاسم ليست دليلا قاطعًا للقول بالاسمية ما لم يدخل على المرادف (الحرف) خاصة من خواص المرادف به (الاسم).

كما أنه يشير إلى ملمح آخر وهو أن الحرف بنفسه لا يكون اسمًا؛ فذلك محال[١٥]، بل يرادفه، ومسوِّغ المرادفة دخول خواص الاسم عليه؛ إذ حرف الجر لا يدخل على مثيله[١٦].

- (هذه طريقة المحققين) ختم الحجاج بمصدر القول المأخوذ به، وقد نسبه إلى المحققين، أي الثقاة، دون تعيين لهوية اتجاههم النحوي (بصري أو كوفي) إذ السياق سياق تبليغ وإقناع بما قام الحجاج لأجله.

إنعام النظر في هذه الأداة وربطها بأسلوب عرض المسألة في سياقات مصنفات النحاة الآخرين يبرز في الذهن تساؤل: بما أن المسألة ليست موطن اختلافات صريحة من النحاة لمَ أوردها الشاطبي في سياق حجاج تقويمي؟

ولاسيما أن كتب الخلاف النحوي تطرقت لمسائل عديدة وناقشتها مناقشة مستفيضة، ولم ترد هذه المسألة فيها، وهل يمكن عدُّها من فوائتها؟

لوحظ في مصنفات بعض النحاة الأولين، كمصنف سيبويه[١٧]، وابن هشام[١٨]، وابن يعيش[١٩]– التي طالتها اليد – تقعيدهم المسألة شأن القواعد الأخرى، وهذا يُرجِّح اعترافهم بمجيئها أسماء بالقيد المذكور.

يعضد ذلك ما نُقِل عن أبي حيان قوله عن مجيء (عن) بمعنى (بعد):" قال أبو حيَّان قال بعض شيوخنا وينبغي على قولهم أنَّها بمعنى بعد أن تكون حينئذٍ ظرفا قال ولا أعلم أحدا قال إنَّها اسم إلَّا إذا دخل عليها حرف الجرّ ..."[٢٠].

كما يُرجِّح القول بأن الشاطبي عندما تناولها لم يهدف من عرضها إيصال الخلاف فيها، وإنما كان عارضًا التقعيد فيها بأسلوب حجاجي، وهذا ما يُرجِّح النتيجة السابقة وهي تأسيس الحجاج التقويمي لهدف التبليغ والإقناع، وهو ممَّا يُلمَح من تكرار الإحالة باسم الإشارة (هذا).

وخلاصة النظر من هذه الأدوات اللغوية يلحظ الآتي:

- تناسق توظيفها لتكون رافدة لما قبلها ومؤسسة لما بعدها.
- بعدها عما يثير حفيظة المتلقي وشبهة إثارة المغالطات.
- الإفادة من دلالتها وموقعها في تيسير تسلسل الفكرة، وإكسابها وظيفة حجاجية متناسقة مع المقصد العام.
- تعددها واختلاف أهدافها ترجيح للقول بأن هدف الشاطبي من حجاجه التقويمي التبليغ والإقناع؛ ولذا كان طويل النفس في سوق حججه فيه مفاضلا وممحصا بالتدريج.

المحور الثاني

سمات الحجاج التقويمي في خطاب

(اسمية بعض حروف الجرِّ) وأثره في الخطاب النحوي

خلص القول في المحور السابق إلى أن الشاطبي أسس خطابه بناء على ما يملكه من رصيد معرفي حول مسألة (اسمية بعض حروف الجرِّ) ولهدف تبليغها وإقناع مرتادي درسه، اختار أن يسلك سبيل الحجاج التقويمي في آلية عرضه لها، وسار فيه تحت تأثير بعدين: البعد الإخباري، والبعد الحجاجي.

ومن دراسة أدواته اللغوية ودلالاتها يمكن القول بأن سمات حجاجه التقويمي تتجلى في بعدين: بعد شكلي، وبعد معنوي.

فالبعد الشكلي ظهر في استخدامه الحوار أسلوبًا لعرض حجاجه التقويمي، وللتنقل بين حججه، ولعل هذا الأسلوب يتناسب مع سياق الحجاج؛ فجعله أشبه بمناظرة وهمية، بعيدة كل البعد عن رتابة التلقين.

وأفسح المجال من جانب آخر للتدرج في عرض الحجج بطريقة أكثر فاعلية؛ إذ مكَّنت المتلقي من التأمل وشحذ فكره لالتقاط العلائق المتشابهة، والتمييز بين المختلفة، وفي هذا صقل لقدراته ودربة على الحجاج ما كانت لتتحقق لو عرضت المسألة عرضًا تقعيديًّا بحتًا.

كما أنَّ هذا التدرج سهَّل استمرار الحجاج، والتَّنقل بين أدلة عقلية[٢١] عدة، كالاستقراء، والقياس، والسبر والتقسيم، والاستدلال بالأولى، وببيان العلة...

أما البعد المعنوي فقد لوحظ في المحور السابق استعماله أدوات لغوية أسهمت في مراعاته أحوال المتلقي في حجاجه، كان بدايتها بافتراض (قيل) من مجهول، يفهم منه بداية تأسيس حجاج لمحاجِج وهمي، دافعًا الفكر بذلك للتساؤل هل يفهم من اختياره هذا استخفاف بالخصم أو الحط من قدره؟

لعل تأمل سياق الحجاج ينبئ باستبعاد ذلك؛ إذ يلمح من هذا التغييب جعل الحجاج بؤرة الاهتمام لا صاحبه، وفي الوقت ذاته يدفع الفكر للتساؤل: هل استطاع الشاطبي أن يغيِّب خصمه تغييبًا تامًّا؟

لعل ما ورد في المحور السابق يعين على الإجابة عن هذا التساؤل؛ فبعض الأدوات اللغوية السابق ذكرها أسهمت في توقُّع سمات المحاجِج، ككونه مجادلاً، أو متعطِّشًا(٢٢).

وقد يلمح من هذا التغييب إشارة ضمنية إلى كثرة مرتادي درسه، واختلاف سماتهم، مما يجعل التعرف عليهم أمرًا شاقًّا، تزامنًا مع رغبته في إيصال تفاصيل العلم لهم، وهذا ما يتسق مع منهج مصنفه التعليمي.

كما يلحظ أن الجمل التي أوردها في افتراضه بدءًا يغلب عليها نظام الجملة الفعلي، وكأنه بذلك يحاول تقديم تصوُّر متجدد، وهذا ما يتناسب مع فكرة الحجاج التقويمي؛ إذ هو أشبه بتقييم لصحة الفرضية المطروحة للنقاش، هل يمكن أن تثبت أمام التمحيص أو لا، وبالتالي فعرضها بنظام الجملة الاسمي منافاة لذلك.

كما يلمح تسخيره نظم تراكيبه لتنسجم مع مقاصده، ويلحظ ذلك في تراكيب الإضافة والشرط؛ فدلالة كل كلمة فيها تعضد المقصد العام، وهو نفي الدليل لمسألة الدراسة.

ولم يلحظ استعماله –في خطابه ميدان الدراسة –كلمات صريحة قد تثير حفيظة خصمه كالهراء والتهكم، وأشباهها، وفي هذا تعضيد للقول برغبته في إيصال المعلومة وكسب ثقة الخصم ليستمر معه في حجاجه حتى نهاية خطابه.

ولعله لذات التفسير اعتنى بترتيب الحجج في حجاجه؛ فلم يكن عشوائيا، بل كل كلمة لها دورها في تفعيله، وتكمن فائدة ترتيبها في ملاءمتها لسياقها وهذا ما يضمن استمرار فعالية الحجاج، واتساق الحجج مع بعض(٢٣)، وتساهم في قراءة حجاجه وأدواته قراءة صحيحة. (٢٤)

ويلحظ –أيضًا– عدم اقتصاره على استعمال الحجج بصفتها أدوات للإقناع، وإنما استند إلى آلية تقديمها، وهذا هو الذي أضاف لحجاجه التقويمي بعدًا تفاعليًّا، انعكس صداه إيجابًا على الدرس النحوي، والخروج به عن رتابة الجمود.

وعلى ضوء كلِّ هذا، يمكن القول بأن توظيف الحجاج التقويمي في الخطاب النحوي يعد استراتيجية فاعلة لمنشئ الحجاج ومتلقيه على السواء؛ فمنشئ الحجاج يجمع بين صناعة الخطاب وتعضيده بحجاج تفاعلي، يستطيع من خلاله كسر جمود الآلية التقليدية لعرض القواعد النحوية وتفصيلات أحكامها. أما متلقيه فيجمع بين المعرفة والمران على التأمل واكتساب مهارة النقد واستجلاء التشابهات والاختلافات.

**

الخاتمة

خلصت الدراسة إلى نتائج، منها الآتي:

- اتساق الأدوات اللغوية الموظفة في الحجاج التقويمي مع سمات مراحله.
- تعدد الأدوات اللغوية في مراحل الحجاج التقويمي واختلاف أهدافها يرجح القول بأن هدف الشاطبي من حجاجه التقويمي التبليغ والإقناع.
- سمات حجاجه التقويمي تتجلى في بعدين: بعد شكلي، وبعد معنوي.
- من السمات البارزة في الحجاج التقويمي للشاطبي المجسدة لملامح الفكر النحوي: التدرج، والتلطف في مراعاة أحوال المتلقي.
- يلمح من تغييب المتلقي في الحجاج التقويمي في خطاب الشاطبي إشارة ضمنية إلى كثرة مرتادي درسه، واختلاف سماتهم، مما يجعل التعرف عليهم أمرًا شاقًّا، تزامنًا مع رغبته في إيصال تفاصيل العلم لهم.
- لم يقتصر الشاطبي على استعمال الحجج بصفتها أدوات للإقناع، وإنما استند إلى آلية تقديمها، وهذا هو الذي أضاف لحجاجه التقويمي بعدًا تفاعليًّا.
- الجمل التي أوردها في حجاجه يغلب عليها نظام الجملة الفعلي، وكأنه بذلك يحاول تقديم تصوُّر متجدد، وهذا ما يتناسب مع فكرة الحجاج التقويمي
- توظيف الحجاج التقويمي في خطاب الشاطبي لم يكن عبثًا أو منفذًا يمكن من خلاله تدارك فوائت خطابه الأساس، بل هو استحضار واعٍ لمنهج مصنفه العام وربطه بأحوال متلقيه.
- توظيف الحجاج التقويمي في الخطاب النحوي يعد استراتيجية فاعلة لمنشئ الحجاج ومتلقيه على السواء.
- منشئ الحجاج التقويمي يجمع بين صناعة الخطاب وتعضيده بحجاج تفاعلي، يستطيع من خلاله كسر جمود الآلية التقليدية لعرض القواعد النحوية وتفصيلات أحكامها.
- يسهم الحجاج التقويمي في شحذ فكر المتلقي للتأمل والدربة على الحجاج.

فهرس المصادر والمراجع

١. جراند، روبرت دي، النص والخطاب والإجراء ترجمة تمام حسان، القاهرة: عالم الكتب، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.

٢. الحباشة، صابر، التداخلية والحجاج: مداخل ونصوص، دمشق: صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م.

٣. حسن، حوراء وسعاد مطير،آليات الاستدلال المنطقي عند البلاغيين والفلاسفة العرب، مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٢٥، ٢٠١٩م.

٤. الزَّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق ، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، د.م: دار الهداية، د.ت.

٥. سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر ، كتاب سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، ط٣، القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م.

٦. السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جلال الدين، همع مع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، مصر: المكتبة التوفيقية، د.ت.

٧. الشاطبي، أبو إسحق إبراهيم بن موسى ، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك) تحقيق:عياد بن عيد الثبيتي، مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى ، ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧ م.

٨. الطيار، عباس حسن، الحجاج في شعر المتنبي: دراسة في الفاعلية الحجاجية، مجلة جامعة بابا، العلوم الإنسانية، المجلد ٢٦، العدد ٥، ٢٠١٨م.

٩. عبد الرحمن، طه، اللسان والميزان (التكوثر العقلي)، الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م.

١٠. العتيبي، غازي عوض وسليمان شلال السويط، أسلوب الحجاج في كتب الخصومة في التراث العربي: بحث في إستراتيجيات الإقناع، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، المجلد. ٣٨، العدد١٥٢، ٢٠٢٠م.
١١. العزاوي، أبو بكر ، اللغة والحجاج، بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ٢٠٠٩م.
١٢. ابن فارس، أحمد بن فارس بن زكريا الرازي ، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون الناشر، د.م: دار الفكر، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م
١٣. لاينزجون ، اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة: يائيل عزيز، بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧م.
١٤. المرادي، أبو محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ ، الجنى الداني في حروف المعاني المؤلف، المحقق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢م.
١٥. ابن هشام، جمال الدين يوسف بن أحمد ، شرح جمل الزجاجي، دراسة وتحقيق: علي محسن عيسى، بيروت: علم الكتب، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م.
١٦. ابن يعيش، يعيش بن علي بن يعيش ، شرح المفصل للزمخشري ، قدم له: إميل بديع يعقوب، بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م.

* *

هوامش البحث

(١) محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق: مجموعة من المحققين ، جـ٥ (د.م: دار الهداية، د.ت) ، ٤٦٤.

(٢) محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الزَّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، جـ٣٣، ٣١٢.

(٣) أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج (بيروت: مؤسسة الرحاب الحديثة، ٢٠٠٩م)، ٢١.

(٤) روبرت دي جراند، النص والخطاب والإجراء ترجمة تمام حسان (القاهرة: عالم الكتب، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م)، ٤٢١.

(٥) طه عبدالرحمن، اللسان والميزان (التكوثر العقلي) (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ١٩٩٨م)، ٢٢٨.

(٦) طه عبدالرحمن، اللسان والميزان، ٢٦٥- ٢٦٧.

(٧) حوراء حسن وسعاد مطير، آليات الاستدلال المنطقي عند البلاغيين والفلاسفة العرب، بحث منشور في مجلة كلية التربية، جامعة واسط، العدد ٢٥، ٢٠١٩م، ٨٥.

(٨) عباس حسن الطيار، الحجاج في شعر المتنبي: دراسة في الفاعلية الحجاجية، مجلة جامعة بابا، العلوم الإنسانية، المجلد ٢٦، العدد ٥، ٢٠١٨م، ٢٥١.

(٩) ينظر: اختلافهم في اسمية حرف الجر الكاف على سبيل التمثيل في: أبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبد الله بن عليّ المرادي المصري المالكي، الجنى الداني في حروف المعاني المؤلف، المحقق: فخر الدين قباوة، محمد نديم فاضل (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤١٣ هـ = ١٩٩٢م) ، ٧٨-٧٩.

(١٠) أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي، المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية (شرح ألفية ابن مالك) ، تحقيق:عياد بن عيد الثبيتي، جـ٣، (مكة المكرمة: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧ م.) ، ٦٥٠- ٦٦١.

(١١) جون لاينز،. اللغة والمعنى والسياق، ترجمة: عباس صادق الوهاب، مراجعة: يائيل عزيز(بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٧م)،٢٢٢.

(١٢) أحمد بن فارس بن زكريا الرازي، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون الناشر، جـ ١(د.م: دار الفكر، ١٣٩٩هـ = ١٩٧٩م) ، ٢٧٦.

(١٣) المقاصد، جـ٣، ٦٥٧.

(١٤) المقاصد، جـ٣، ٦٥٨.

(١٥) ابن يعيش، يعيش بن علي بن يعيش، شرح المفصل للزمخشري ، قدم له: إميل بديع يعقوب، جـ٤(بيروت: دار الكتب العلمية، ، ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م)، ٤٥٨.

(١٦) ابن يعيش، شرح المفصل، جـ٤، ٥٠٠- ٥٠١.

(١٧) سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، تحقيق وشرح: عبدالسلام هارون ، ط٣،جـ١(القاهرة: مكتبة الخانجي، ١٤٠٨هـ= ١٩٨٨م)، ٤٢٠.

(١٨) جمال الدين يوسف بن أحمد بن هشام، شرح جمل الزجاجي، دراسة وتحقيق: علي محسن عيسى (بيروت: علم الكتب، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥م)، ١٥٢.

(١٩) ابن يعيش، شرح المفصل ، جـ٤، ٤٥٨.

(٢٠) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، مع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق: عبد الحميد هنداوي ، جـ٢(مصر: المكتبة التوفيقية ، د.ت)، ٤٤٤.

(٢١) المقاصد، جـ٣، ٦٥٦.

(٢٢) ينظر في الدراسة: ص٨.

(٢٣) ينظر: صابر الحباشة، التداخلية والحجاج: مداخل ونصوص (دمشق: صفحات للدراسات والنشر، ٢٠٠٨م)، ٥٥.

(٢٤) غازي عوض العتيبي وسليمان شلال السويط، أسلوب الحجاج في كتب الخصومة في التراث العربي: بحث في إستراتيجيات الإقناع، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت ٢٠٢٠ ، المجلد. ٣٨، العدد١٥٢، ١٧.

* * *